مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (1)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (1) 2011

الحنّة: وظائفها وطقوسها الاجتماعية
(دراسة أنثروبولوجية في قرية بللوران الساحلية)

الدكتور كامل عمران *
الدكتور عز الدين دياب**
إيفا سليمان خرما ***

(تاريخ الإيداع 5 / 5 / 2010. قبل للنشر في 8 / 2 / 2011)

□ ملخّص □

تهدف الأنثروبولوجيا لدراسة البنى الاجتماعية بأنساقها وأنشطتها المختلفة، لمعرفة حدودها البنائية، ومعاني دلالاتها وعلاقاتها بالظواهر الاجتماعية الأخرى .

ولما كان هذا شأن الأنثروبولوجيا الاجتماعية استعنا بمنهجها لدراسة **ظاهرة الحِنَّاء** في القرية الساحلية، لتبيّن معانيها ومدلولاتها الرمزية، ومعرفة علاقاتها البنائية مع العناصر والظواهر الاجتماعية التي تتعلق بالثقافة التقليدية؛ لدعم استمرار التضامن والتكافل الاجتماعيين في المجتمع.

تأتي أهمية دراسة الحِنَّاء، من كونها إحدى الطقوس الاحتفالية التقليدية بالزواج، بما تحمل من معانٍ وما تؤدي من وظائف اجتماعية وعلاجية وتزيينية وحتى نفسية تمسّ بشكل مباشر حياة العروسين قبل ليلة زواجهما.

تُبيّن الدراسة حدوث تحولات جوهرية في مراسم ليلة الحنّاء في المجتمع القروي الساحلي، منذ سبعينيات القرن الماضي؛ إذ اتضح اندثار كثير من القيم الثقافية المتعلقة باحتفالات العرس القروي التقليدي، في الوقت الذي بدأت تظهر فيه أنماط ثقافية/اجتماعية جديدة، تمثلت بثقافة **الماكياج** في صالونات التزيين الحديثة، إثر انتشار قيم ثقافية استهلاكية بحتة، تفرضها على الدوام عملية التثاقف التي مهدت لها ثورة المعلومات.

كما اتضح أيضاً، بأنّ رياح التغيير تضغط بقوة نحو تحوُّل الأجيال الشابة لتبنِّي قيم ثقافية تتعلق بإحياء بعض الجوانب من تراثنا التقليدي، تحت تأثير نتاجات العولمة المعاصرة، التي تدفع ببعض النشء للهروب من وطأة الحياة العصرية وتعقيداتها؛ ما يكشف عن استيعاب الأجيال الشابة لمعطيات التغيير، ومن ثم إدراكهم بأهمية العودة إلى التراث الثقافي الأصيل، ولكن بأساليب حداثوية أكثر توافقاً مع معطيات الوقت الراهن.

الكلمات المفتاحية: الحِنَّة، الطقوس، الوظائف.

* **أستاذ– قسم علم الاجتماع– كلية الآداب– جامعة دمشق– سورية.**
** **أستاذ– قسم علم الاجتماع– كلية الآداب– جامعة دمشق– سورية.**
*** **طالبة دراسات عليا (دكتوراه)– قسم علم الاجتماع– كلية الآداب– جامعة دمشق– سورية.**

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (1)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (1) 2011

AL- Henna: Function and Social Rites (Anthropological Study in the Costal Village of Balloran)

Dr. Kamel Omran *
Dr. Ezz Eddin Diab**
Eva Kharma ***

(Received 5 / 5 / 2010. Accepted 8 / 2 / 2011)

□ ABSTRACT □

Anthropology aims at studying the social structures with their different orders and activities to know their related constructive borders, denotations and their relationship with other social phenomena.

Whereas this is a concern of social anthropology we made use of studying the henna phenomenon at the coastal village to check its meanings and symbolic senses, knowing its constructive relations with the social elements and phenomena that are related to the conventional culture what support continuity of the social solidarity among the village inhabitants.

The importance of studying henna exists in being one of the conventional ceremonial rituals used in marriage with its meanings that perform social, remedial, ornamental and even psychological functions which touch directly the life of the bride and bridegroom before their wedding night.

The study shows happening of essential changes in the conventional marriage rituals since the seventies of the past century, where the marriage weddings were limited to few hours of (wedding night) to comply with the speed age; thus the henna night has disappeared and is replaced with new cultural modes represented by makeup culture at modern salons as a result of dissemination of pure consumptive cultural values imposed continually by mutual cultures of which the way are paved by information revolution.

Key words : Henna – Ritualism – Functions

* **professor, Department of sociology, Faculty of Arts Humanities, Damascus university, Syria.**
** **professor, Department of sociology, Faculty of Arts Humanities, Damascus university, Syria**
*** **Postgraduate Student, Department of sociology, Faculty of Arts Humanities, Damascus university, Syria.**

مقدمة:

تُعدّ ظاهرة **الحِنَّاء** إحدى الظواهر التي تمتّ بصِلات متعددة للنسق الاجتماعي، لكن هذا لا يحول دون أنْ يجعل منها العلم الأنثروبولوجي الثقافي ظاهرة من الظواهر التي تُحسَب وتعود للنسق الثقافي. وعلى هذا الأساس فإنّ هناك من الباحثين مَنْ يحتسبها على النسق الاجتماعي ونظمه وظواهره، وهناك مَنْ يصرّ على أنّها تمتّ بصِلات وانتماءات وظيفية للنسق الثقافي.

واستناداً إلى قول العلم الأنثروبولوجي: إنّ الظواهر البنائية حمَّالة للوظائف والمهام البنائية بكل ما فيها من مكوّنات وأنشطة، فإنّنا سننظر إليها ونتعامل معها من منظور العلم الأنثروبولوجي، الذي يضع باعتباره ما فيها من تعدد في المكوِّنات؛ الأمر الذي يجعلنا، ونحن نقوم بمهمة وصف وظائف هذه الظاهرة وتحليلها و تفسيرها، أنْ نبرز مرَّة المكوّن الثقافي ومرّة أخرى المكوّن الاجتماعي، وذلك من حيث إنَّ الثقافة الاجتماعية تشتمل على كل ما أنتجه مجتمع من المجتمعات البشرية من تراث مادي (حضاري) وغير مادي (سلوكي)، عَبْرَ مراحل تطوره التاريخية؛ إذ تكمن أهمية اهتمامنا اليوم **بالثقافة الشعبية** – بوصفها جزءاً مهماً من ثقافة المجتمع– من كونها تشكّل جزءاً من المخزون التاريخي الذي يستند عليه الإنسان في حاضره، لكن مع الوضع في الحسبان كافة آليات التغيير التي قد تعترض مسيرة هذا الإنسان في تطوره وحركة ارتقائه، وهذا الأمر ينسحب على كل مجتمع إنساني في هذه المعمورة؛ "فالأمة التي ليس لها حاضر لن يكون لها مستقبل، ومن الخطأ أنْ نترك الماضي على أنه اندثر وراح، إنما ندرس التراث الثقافي القديم، دراسة نقدية إيجابية للإفادة منه وتطوير هذه الجوانب الإيجابية" (العسكري، 1998، 37).

كما تفرض **الثقافة التراثية** حضورها أيضاً بوصفها جزءاً من الثقافة التقليدية العامة للأفراد، وذلك لأنها "ميراث مركّب من عناصر سلوكية ومادية يقوم الأفراد بنقلها من مرحلة تاريخية إلى أخرى، وذلك بفضل تداخلها في سلوكهم، ومقدرة عناصرها على الانتقال من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل"(دياب، 2000، 35).

ضمن هذا السياق تعدُّ **الثقافة** اليوم، في ظل التحولات الاجتماعية/الاقتصادية المتلاحقة، أحوج من أي وقت مضى إلى الدرس والتحليل لتبيُّن المعاني الصحيحة والسليمة لها، لكي توافق روح العصر؛ لأنّ في ذلك إثراءً حقيقياً للثقافة العربية الحالية، انطلاقاً من أنّ "مستقبل النظام الثقافي العربي يظل مصدراً للتساؤل الدائم، في ظل التحديات والمتغيرات الكونية الهائلة، وثمة ضرورة لتشخيص الواقع الثقافي الحالي، بحثاً عن كيفية ملائمة للخروج من المأزق، والانطلاق تجاه الحضور بشكل فاعل داخل العصر المقبل، والتأكيد من جديد على موقع الثقافة العربية في حضارة العالم". (العسكري، 1998، 35).

وبما أنّ المجتمع العربي السوري ما يزال يشكّل، بكتلته البشرية وموقعه الجغرافي، جزءاً من المنظومة الكونية في ماضيها وحاضرها، فهو مافتئ يبحث– تجديداً لذاته الحاضرة– في الآليات التي تحقق له نقلة نوعية إلى المستقبل الآتي؛ لذا كان لابد من إعادة قراءة **التراث الثقافي** للمجتمع العربي السوري، وتوظيف هذه القراءة في إحياء الذاكرة التاريخية، وتأريخ الحياة الاجتماعية، بناءً على مكوِّناتها الموجودة أصلاً في الثقافة.

ومن الضرورة بمكان، أنْ نستثمر العلم الأنثروبولوجي، وتوظيفه في قراءة هذا التراث، المكتوب منه والشفاهي، ولكن بما يتناسب والإيقاع الحضاري المتجدد للحياة العصرية، للإفادة منه بإعادة إنتاج بعض مضامينه الثقافية، وتوظيفها بما يتسق والمعطيات الحضارية الحديثة، لاستثمار ذلك في عملية التنشئة الاجتماعية للأجيال الناشئة، بحيث تصبح قادرة على التكيف مع الشخصية الحضارية الجديدة لهذا المجتمع.

ولهذا فإنّ توظيف **الثقافة الشعبية** في دورة حياة الإنسان، لن يكون إلا عبر بوابة العادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية، بحيث يكون التركيز أولاً وأخيراً منصبَّاً على استثمار كل ما هو إيجابي ومضيء في حياة المجتمع، بغية وضعه في متناول أيدي الأجيال المتعاقبة. من هذا المنطلق تكون كلٌّ من"قضية التنمية وقضية التراث متلازمتين وغير متباعدتين، بل لا نبالغ إذا قلنا إنّ هاتين القضيتين وجهان لعملة واحدة، وهي المجتمع، حيث يمكن جعل التراث ميداناً خصباً تجد فيه مشروعات التنمية كافة متطلباتها، بالإضافة إلى ما يمكن أنْ يعطيه هذا التراث من خصوصية وأصالة في برامج التغيير التي ينشدها المجتمع، فلطالما عانى مجتمعنا العربي من درجة حدة التحديث الغربي، والذي أسهم في إعادة إنتاج التخلف بدلاً من التخلص منه" (شماس، 2007، 4).

ففي مجتمعنا العربي مازلنا نحتاج إلى وقفة متأنية مع ثقافتنا التقليدية، من منظور العلم الأنثروبولوجي، بغية إمعان النظر فيها من جديد، ومن ثم إعادة تدوير هذا التراث الثقافي للإفادة منه في إعادة إحياء الدور الحضاري العربي؛ إذ من الممكن أنْ يكون للتراث الثقافي دوره الرئيس والفاعل في إعادة بعث نبض الحياة حضارياً وفكرياً في مجتمعنا، والذي تتنازع أبناءه كثيرٌ من الصراعات بين قيم الماضي وعاداته من جهة، والحاضر من جهة أخرى، والتي تقف على الدوام حائلاً أمام انطلاق الأمة نحو مستقبل أفضل وأكثر إشراقاً في مواجهة تحدّيات العصر.

بناءً على ما تقدّم، فإنّنا سنستحضر العلم الأنثروبولوجي للاستعانة بمناهجه لدراسة التراث الثقافي في القرية الساحلية السورية، انطلاقاً من قاعدة مجتمعية تقول: إنّ الريف في قطرنا العربي السوري لا يزال الأكثر سكاناً، كما أنّه لا يزال يحافظ على كثير من العناصر والسمات الثقافية التقليدية/الشعبية، ما يجعلنا نتطلع وبكل جدّية لدراسة بعض جوانب هذه الثقافة، بهدف إعادة قراءة مدلولاتها الاجتماعية من منظور أنثروبولوجي، من أجل الكشف عن المعاني السليمة لها، ومن ثم تفسيرها في إطار التحليل الذي سنقوم به للظاهرة موضوع الدراسة.

إنّ إعادة إحياء قيمنا الثقافية التقليدية، تشكّل بحدِّ ذاتها عملية ثقافية جديدة تسمح باستيعاب الماضي لتصنع منه إناءً ثقافياً جديداً يسمح بدوره في إعادة إنتاج قيم المجتمع، لكن هذه المرة، بقوالب ثقافية أكثر عصرية، من خلال مزاوجة الأصيل، بقيمه وتقاليده وأخلاقياته، مع الحاضر العصري، حيث توطّنت تقانة الاتصالات والإنترنت، وثورة المعلومات الهائلة، التي حوّلت العالم بأسره إلى قرية كوكبية صغيرة.

أهمية البحث وأهدافه:

من المعلوم أنّ المجتمع العربي السوري، غني بثقافته الشعبية، التي تضرب بجذورها التاريخية إلى أقدم العصور، حيث يتفاعل هذا التراث الثقافي مع الواقع الاجتماعي الحي بأنساقه ونظمه الكبرى، وعناصره الجزئية تفاعلاً وظيفياً تبادلياً، أسهم عبر الزمن بتوطيد دعائم استقرار هذا المجتمع.

من هنا تأتي **أهمية** دراسة الثقافة التراثية التقليدية في المجتمع القروي الساحلي، لتبيُّن دور هذا الجانب البنائي في تكريس استقرار هذا المجتمع ودوام استمراره في الوجود، على الرغم من التحوّلات الجارية في هذا المضمار، التي تحدث بفعل تأثيرات الثورة المعلوماتية الكونية، لدورها الفاعل في عملية الانتشار الثقافي بين الشعوب؛ الأمر الذي يمكِّننا من التعرُّف أكثر على مضامين الثقافة الشعبية المحلية الراهنة، وإنْ كان اعتراها حقاً شيء من التحوُّل، سواء أكان جزئياً أم حتى كلِّياً، في بعض جوانبها الاجتماعية، ليُصار إلى استثمار، ما أمكن، من هذه المعطيات الجديدة في تعميق قيم التماسك الاجتماعي بين مكوِّنات مجتمعنا العربي السوري، بجميع جهاته

وعقائده واتجاهاته الفكرية والسياسية، ما يُسهم بتمكين هذا المجتمع من الوقوف بثبات أكبر في وجه تحديات العصر ومستجداته، ضمن إطار العائلة الأكبر (الوطن العربي)، المُهدَّد باستقراره ووجوده في كل لحظة.

كما تبرز **أهمية** هذه الدراسة، من جهة أخرى، من كونها تركِّز على قراءة ظاهرة اجتماعية/ثقافية بعينها، في إطار علاقاتها التبادلية مع النظم البنيوية الأخرى، والتي تشكل مع غيرها من العناصر والأجزاء والأنساق، ما يُسمى (البناء الاجتماعي)، بحيث يمكننا قراءة هذه العلاقات قراءة أنثروبولوجية متأنية للتعرف إلى الدور الوظيفي الاقتصادي/ الاجتماعي/ الثقافي لهذه الظاهرة، جنباً إلى جنب مع العادات والتقاليد الاجتماعية، التي تشكل في نهاية التحليل أحد أهم المؤشرات البنائية في الشخصية الاجتماعية القروية.

أمَّا **الهدف** من وراء هذه الدراسة المتواضعة، فيكمن في الرغبة في تأريخ الحياة الاجتماعية القروية، تأريخاً يُظهِر ملامحها ومعالمها الاجتماعية المتغيرة، إلى جانب تعرّفنا إلى أي مدى ما يزال يحتفظ أبناء الريف الساحلي بهذه العادات، ومن ثم هل أثَّر ذلك في توجيه سلوكهم من جهة، وتحديد نظرتهم إلى مجتمعهم المحلي من جهة ثانية، وإلى وطنهم الأكبر من جهة ثالثة؟ إذ في التأريخ، ومن دون أدنى شك، تتبدّى بوضوح لا لُبس فيه معالم الشخصية الاجتماعية القروية لـــ (بللوران).

من المؤكَّد أنَّ إعادة دراسة الثقافة التقليدية، كما في دراسة **ظاهرة الحنَّاء**، سيكون بمنزلة إعادة تدوين هذه الثقافة التي كادت تنطمس معالمها، وتسقط في مهاوي النسيان؛ لأنَّ في ذلك سيكون اختفاء لبعض الملامح القروية التي تشكّل مع مثيلاتها الشخصية الاجتماعية الريفية؛ فضلاً عن الرغبة في أنْ تصبح هذه الأبحاث الاجتماعية بوصفها مرشداً ودليلاً فكرياً لكل مُهتَمّ، وموجِّه منهجي لمزيد من البحث والتأمل في مضمون الثقافة القروية التقليدية.

منهجية البحث:

عمدنا في هذه الدراسة إلى استخدام المناهج الآتية:

1- **المنهج التاريخي:** بما أنّ ظاهرة الحنَّة تضرب بجذورها في الماضي السحيق، تقتضي الضرورة هنا الكشف عن طبيعة هذه الظاهرة ومعرفة أبعادها في مجتمع الدراسة، بين الماضي والحاضر؛ أي كيف كانت عليه، وما آلت إليه في وقتنا الراهن؟ الأمر الذي افترض أنْ نستعين بأحاديث كبار السن، (لكون هذه الظاهرة تندرج تحت مسمى الثقافة الشفاهية)، لعدم توفر أي (وثائق أو مدوَّنات) تعبِّر عنها، فتتاح لنا فرصة التعرف على تلك العادة في ضوء هذا المنهج؛ لأنه الطريق الأمثل الذي يُفترَض أنْ يتَّبعه كل باحث يتطلع إلى دراسة ظاهرة تمتد بوجودها إلى عمق تاريخي قريب أو بعيد، وكذلك يكون البحث في مضمار العادات والتقاليد التي تُعدّ جزءاً من الماضي البعيد، بهدف تتبُّع وجودها، ومن ثم تبيُّن علاقاتها التبادلية في إطار بنيتها الاجتماعية، للكشف عن حقائقها، والوصول إلى النتائج والتعميمات التي لا تفيد في فهم أحداث الماضي فحسب، بل وتتعداه إلى معرفة بعض تباشير المستقبل، بما يساعد في تفسير الأحداث والمشكلات الجارية وفي توجيه التخطيط المستقبلي للمجتمع. (انظر: الشيباني، 1971، 82).

2- **المنهج الوظيفي:** يعدُ المنهج من المناهج المهمة في علم الأنثروبولوجيا، وبما أننا بصدد دراسة ظاهرة تقليدية، فإنّه لابد من تحليل بنية هذه الظاهرة في علاقاتها الوظيفية ضمن إطار نظام الزواج التقليدي، ومن ثمّ تقديم تفسير أنثروبولوجي لها في ضوء استخدام المنهج الوظيفي الذي يعني "الاهتمام بالتعرُّف على مدى التشابك

والتفاعل القائمين بين النظم التي تؤلف حياة المجتمع ككل، ونصيب كل نظام منها في المحافظة على تماسك ذلك المجتمع، واستمرار وحدته وكيانه" (أبو زيد، 1976، 69).

آليات جمع البيانات ووسائلها:

ومن هذه الوسائل ما يأتي:

1- **الملاحظة بالمشاركة:** تكون ملاحظة الظاهرة عادة بحضور بعض الاحتفالات بليلة الحنة؛ إذ ينزع العديد من أبناء الريف الساحلي إلى إعادة إحيائها من جديد؛ إضافة إلى مرافقة عدد من العرائس إلى صالات التجميل وملاحظة طريقة تزيين الحنة بالأشكال العصرية بشكل مباشر.

2- **المقابلة:** ستُستخدَم وسيلة المقابلة في معظم مراحل هذا البحث، لأنها الوسيلة الأفضل هنا للحصول على بيانات موضوعية واقعية عن عادة الحنة وطقوسها القديمة والحديثة، وتقتصر المقابلة على بعض مسنّي القرية بشكل فردي، ويمكن أنْ يُصار إلى مقابلة أكثر من مسن أو مسنَّة في وقت واحد، وذلك بحسب المتطلبات التي قد تمليها أعمال اللحظة الراهنة.

الدراسات السابقة:

أولاً- دراسة في عام 2003م، للباحثة **(هند عقل العقيبة)**، بعنوان "عادات الزواج وتقاليده بين الثبات والتغير"، حيث تناولت الباحثة بالدراسة المستفيضة عادات الزواج وتقاليده في مدينة (بانياس الساحلية) وريفها، ضمن إطارها الثقافي والاجتماعي، في محاولة للوقوف على عادات الزواج وتقاليده المرافقة له بين الماضي والحاضر، وهي دراسة تعتمد المنهج الأنثروبولوجي على أساس أنّ إجراءات الزواج ومراسمه يبرز من خلالها كثير من الممارسات السلوكية التي يقوم بها بعض الناس في حياتهم اليومية، ولعل من تلك الممارسات – التي أشارت إليها الباحثة، والتي ما تزال متبعة في مدينة بانياس عشية الاحتفال بليلة العرس – ليلة الحنة، التي تُعدّ إحدى جوانب الاحتفالات الشعبية المرتبطة عادة بدلالات اجتماعية معينة، وذلك من كونها طقساً جمعياً يسبق الاحتفال بالزفاف بيوم واحد، حيث تجتمع النسوة من حول العروس، وهي مغطاة الرأس بمنديل من الحرير الطبيعي، بينما ترتدي من الألبسة ما هو بسيط، أي بما يستر البدن، في الوقت الذي يُفترض أنْ ترتسم على محياها هالة من الحياء والخجل، عندها تتقدم إحدى النسوة الخبيرات بعملية التحنية لتقوم، وعلى الملأ، بتحضير مطحون الحنة ومزجه مع الماء المملَّح وزيت الزيتون، إيذاناً ببدء مراسم التحنية؛ إذ تنبري إحدى الفتيات المقربات من العروس بحمل إناء الحنة المزدان عادة بأنواع مختلفة من الورود، لتدور به سبع مرات في أنحاء الغرفة؛ إذ إنّ للعدد سبعة عند العرب مدلولات دينية ربما تنمّ على اليسر والخير.

تبدأ مراسم الحنّة بقيام المحنّية بتقطيع عجينة الحنة إلى قطع طولانية، ثم تقوم بلصقها في راحة كف العروس، وتطلب إليها ضرورة الالتزام بإطباق الكفين بإحكام على المزيج، ثم تعمد إلى ربط الكفين المُطبقين بقطع من القماش الأبيض حتى صباح اليوم التالي، مع الحرص على عدم استخدام الماء في هذه الفترة، ويُشاع أنّ العروس التي تستمر أصباغ الحنة على كفيها مدة أطول تكون أكثر سعادة وأعمق التصاقاً بزوجها من العروس التي تزول الأصباغ عن كفيها بسرعة أكبر.

إلاّ أنّه، على الرغم من مظاهر البهجة والفرح في هذه الليلة الفريدة والمهمة في حياة العروس، فإنّها لابد أنْ تحمل معها بعضاً من الأسى حزناً على مفارقة العروس لأهل بيتها، حيث عاشت معهم ردحاً طويلاً من الزمن، في كنف أبويها وإخوتها، ما كان يُعكر عليها بهجتها وصفاء ذهنها؛ إذ غالباً ما كانت العروس تتمنَّع عن مد يديها أو فتح كفيها لتحنيتهما، ما يتطلب إحضار الأب الذي يُلبي النداء ليُهدِّئ من روعها، عندها تذعن العروس مُسلِّمة أمرها لـــ (المحنِّية) لاستكمال مراسم ليلة الحناء، بما يتخللها من فرح الاقتران بزوج من جهة، والحزن على فراق منزل ذويها من جهة أخرى، هذا الحزن الممزوج بالحياء يزيد من بهاء طلّة العروس، ويرفع من شأنها في نظر الناس.

قدَّمت هذه الدراسة وصفاً تحليلياً شاملاً لمحتوى ظاهرة الحنَّاء، من كونها جزءاً من المراسم الشعبية للاحتفال بالعرس القروي في الماضي؛ إذ أجادت الباحثة في عرضها لتفاصيل الاحتفال بليلة الحنّاء بشكل رتيب، بدءاً من دعوة العروس لصديقاتها المقرّبات منها للحضور إلى منزلها مساءً، مروراً بتحضير مزيج الحنّاء وما يرافقه من تفاصيل احتفالية جمعية كغناء الأهازيج وإطلاق الزغاريد المرتبطة بشكل خاص بهذه الليلة، وانتهاءً بكامل طقوس التحنية قبل انفضاض التجمع وانتهاء الحفلة.

إنّ المأخذ المنهجي على هذه الدراسة، يتمحور حول عدم وضع الباحثة ظاهرة الحِنَّاء في إطار علاقاتها التبادلية مع غيرها من العادات المرتبطة بليلة الزفاف؛ لتُغفل الباحثة بذلك ركناً مهماً في تحليل بنية هذه الليلة الاحتفالية بمعانيها الاجتماعية، ومدلولاتها الوظيفية المرتبطة بها، ما يُعدُّ ثغرة منهجية في الأبحاث الأنثروبولوجية؛ الأمر الذي اقتضى أنْ نعيد قراءة هذه الظاهرة من وجهة نظر أنثروبولوجية تعتمد مبدأ التحليل الوظيفي، لفهم طبيعتها ومعرفة آليات علاقاتها التبادلية في إطار البناء الاجتماعي الذي دُرِست فيه.

المفاهيم والمصطلحات العلمية:

تشكل المفاهيم والمصطلحات العلمية مجموعة "الوسائل الرمزية التي يعتمد عليها الإنسان في التعبير عن المعاني والأفكار، بغية توصيلها للآخرين، وغالباً ما تعبِّر عن الصفات المجردة التي تشترك فيها الأشياء والظواهر والحوادث، سواء أكانت طبيعية أم اجتماعية" (أبو طاحون، 1997، 42).

1- **الحِنّاء:** هي مادة تلوينية قديمة عُرفت تاريخياً عند الفراعنة بهذا الاسم، وقد "شاع استعمالها في العصر الجاهلي عند العرب، والعصر الإسلامي أيضاً، وساعد على انتشارها نشاط التجار العرب الذين كانوا يستوردونها من بلاد الهند على شكل صبغة نباتية، ذات لون أحمر أو أسود" (عبيدات، 1986، 338).

2- **العادة الشعبية:** "هي أساليب الشعب وعاداته المستترة للسلوك والتي يؤدي خرقها إلى الصدام مع ما يتوقعه رأي الجماعة" (هولتكراس، 1972، 247).

3- **التثاقف:** "يُستخدَم هذا المصطلح في عملية الاتصال التي تحصل بين ثقافتين؛ فضلاً عن استخدامه للتعبير عن نتائج الاتصال الثقافي، سواء وقع بشكل مباشر أو غير مباشر" (العمر، 2000، 99).

مجالات الدراسة:

1- **المجال المكاني:** وقع اختيارنا على **قرية بللوران**، التي تقع شمال مدينة اللاذقية بنحو30كم، لدراسة (ظاهرة الحِنَّة) فيها، لتكون مجتمع البحث الأصلي، وتعود مسوِّغات هذا الاختيار إلى الآتي:

أ- كوني أقيم في هذه القرية (بحكم الزواج) منذ عدة سنوات؛ الأمر الذي ساعدني كثيراً في تقبُّل أبناء القرية لي بوصفي منهم، وسهّل عليَّ مسألة التواصل معهم بأريحية تامة، ما هيأ من ثم الظروف الملائمة لملاحظة الظاهرة بالمشاركة، والتي آمل أنْ تكون أسهمت بدورها في الحصول على بيانات تتسم بدرجة عالية من الدّقة والصدق.

ب- لأنّ القرية تعرّضت في الأربعين سنة الماضية لكثير من التغيرات في معظم مناحي الحياة، من اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية، بفعل جملة من المشاريع التنموية التي أقيمت فيها، وتأثير ذلك في إحداث تحولات مختلفة في الواقع الحياتي التقليدي للقرية، ودور التواصل الحضاري بين المدينة والقرية في ذلك، وفي فهم مؤشر التغيرات التي طرأت على منظومة القيم الاجتماعية والعادات الشعبية في الريف الساحلي، ومنها ما نحن بصدد دراسته اليوم، ونعني بها (ليلة الحِنَّة)، باعتماد **المنهج البنائي الوظيفي** في رصد الظاهرة، ومن ثم تحليل ارتباطاتها البنيوية، وتفسير تشابكاتها مع الظواهر الاجتماعية الأخرى، والدور الذي قد يؤديه التحضُّر ومنتجات العولمة في غياب بعض الظواهر والعادات الاجتماعية؟ وما هي مؤشرات العودة إلى إحياء بعض القيم الثقافية التقليدية التي بدأت تظهر من جديد على مسرح الحياة الاجتماعية، وإذا كانت هناك حقاً عودة إلى تبنِّي بعض القيم والعادات التقليدية؟ و ما هي الأسباب الكامنة وراء الحنين إلى الأصيل منها، في ظل عالم تتنازعه قيم التمظهر والاستهلاك في شتى المناشط الحياتية؟ ومن ثمَّ، معرفة إلى أي مدى يمكن أنْ يكون للتثاقف – إيجاباً أو سلباً- دوره في ثبات عادة الحنة، ومن ثمَّ معرفة ما طرأ على هذه العادة الشعبية من تغيرات بفعل آليات الاتصال الثقافي التي هيأت لها ثورة التقانة والمعلوماتية؟.

2- المجال البشري: يتمثل المجال البشري لمجتمع البحث بالمسنين والشباب المتزوجين حديثاً ذكوراً وإناثاً، والسبب في اختيار المسنين كونهم حفظة للتراث، بحكم أنّهم معاصرو ذلك الزمن والشهود عليه، كما أنّهم وثيقة تاريخية قيّمة لحفظ بعض البيانات المتعلقة بالماضي وتراثه العريق.

أمَّا اختيار الشباب المتزوجين حديثاً فهو لمعرفة هل رافق عشية زفافهم شيء من الطقوس التي كانت تُمارس قديماً في أثناء مراسم الزواج التقليدي؟ الأمر الذي سيمكّننا من الوقوف على الواقع الراهن لهذه العادة الشعبية، من حيث ثبات بعض طقوسها، أو تراجعها أو حتى اندثارها. وهل يتخذ الاحتفال بهذه العادة الوظائف الاجتماعية نفسها التي كانت تحققها في الماضي القريب؟.

3- المجال الزماني: توزعت المدة الزمنية للدراسة على النحو الآتي:

أ- زيارة مجتمع البحث. ب- جمع البيانات وتحليلها وتفسير النتائج. ج- الطباعة وإخراج البحث بشكله النهائي.

النتائج والمناقشة:

تتسم مراسم الزواج بكتلة مركّبة من العناصر الثقافية، من عادات وأعراف وتقاليد اجتماعية، استمر بعضها حتى وقتنا الحاضر، بينما تعرَّض بعضها الآخر لجملة من التحولات التي لامست معظم مظاهر حياتنا تقريباً. لكن على الرغم من ذلك فإنّ نظام الزواج ما يزال يحتوي على كثيرٍ من المظاهر والمراسم التقليدية التي تعود في بنيتها إلى أزمنة تاريخية موغلة في قِدمها، والتي وصلت إلينا بفعل عملية التنشئة ودورها في نقل ثقافة المجتمع من جيل إلى جيل، ودونما كثير عناء، لتُخلَّد في عمق ذاكرتنا الشعبية مُشكِّلة موروثاً ثقافياً له مدلولاته ومعانيه الثقافية

والاجتماعية، والتي ترتبط بدورها بجملة من الوظائف الاجتماعية والنفسية والروحية لدى ممارسيها، بحيث تصبُّ بمجموعها في قناة واحدة تُوصِل إلى إشاعة الفرح بين الأهل، وتُكرِّس قيم الألفة والتعاضد، بحيث تشكّل شرطاً لإضفاء مشاعر الرضا والشرعية الاجتماعية على قران شريكين مدى الحياة.

ومن المُلاحَظ أنّ القليل القليل من العادات الاجتماعية التقليدية، ما تزال تُمارَس حتى يومنا الحاضر، لكن السؤال المطروح هنا: كم من القائمين عليها يُدركون تماماً حقيقة ما ترمز إليه من مدلولات ومعانٍ اجتماعية؟.

من هنا نجد أنّ العادة الاجتماعية ما تزال "تحمل في ثناياها معتقدات تصور ما هو مرغوب فيه، وما هو غير مرغوب فيه، بين أبناء المجتمع، وتعبّر عن حاجاتهم وأهدافهم واهتماماتهم". (العقيبة، 2003، 126).

ولعل من التقاليد، التي نحن بصدد دراستها الآن، ما عُرِف، بـــ (ليلة الحِنَّة)، التي ارتبطت مدلولاتها الوظيفية بـــ (الزينة والفرح والإثارة والعلاج) منذ أقدم العصور، كما يكون لهذه الليلة خصوصيتها عندما تنحدر العروس من عائلة ذات نسب رفيع، عندئذ تأخذ التحنية اهتماماً اجتماعياً أكبر، بحيث تتسع دائرة الاحتفال لتتجاوز المقرَّبات إلى دعوة نساء القرية جميعهنَّ، حيث تُقدَّم أطايب الطعام والحلويات، وهي دلالة اجتماعية تكشف عن رفعة مكانة العروس وموقع عائلتها في المحيط الاجتماعي.

تنوَّعت قديماً طقوس الاحتفال بهذه الليلة بالتنوع الجغرافي والاجتماعي/الثقافي للأرض السورية، من حيث غناها بموروثاتها الثقافية الشعبية، التي تشابه لوحةً فسيفسائية أصيلة. والحِنَّاء كما هو معروف لدينا هو عبارة: عن نواتج نباتية، تستخدم فيها أنواع معينة من أوراق الأشجار، التي تُطحن ثم تجبل بالماء أو الزيت أو الشاي، ومن ثم تُوضع على أنحاء مختلفة من الجسم، (كالأكف والأقدام والشعر).

لقد اهتم الريفيون في الساحل السوري بالاحتفال بليلة الحِنَّة، بوصفها علامة وميزة في عادات الاحتفال بليلة الزفاف قديماً، لما كانت تحمله في بنيتها من وظائف اجتماعية مهمة، تتمحور حول بعض الوظائف التزيينية والعلاجية على حدّ سواء؛ إذ كانت تشكل مادة الحِنَّة أساساً لا يمكن تجاهله في مراسم الأعراس، لما تترك من آثار صبغية على الكفين، والتي كانت تأخذ لوناً قرميدياً أو مائلاً للاحمرار، هذا التلوين له وظائفه الاجتماعية الآتية:

1- **وظيفة تزيينية:** إذ غالباً ما كانت تتفنن المزينات بوضع الحنة على كفّي العروس وقدميها وبعض الخِصَل من شعرها، لإضفاء شيء من الجاذبية والجمال عليها من جهة، ويسهم من جهة أخرى، في إخفاء بعض مظاهر الشقاء كالتشققات الجلدية التي كان يتركها العمل الزراعي على أيدي النسوة الريفيات وأقدامهنَّ في الماضي؛ فضلاً عن دور الروائح العطرية التي تخلِّفها مادة الحِنّاء على جسم العروس، ما يزيدها رونقاً وبهاءً، ويُضفي على ليلة الدُّخلة شيئاً من الجاذبية والإثارة.

2- **وظيفة علاجية:** يُعرَف عن الحِنَّة بأنها تؤدي وظيفة علاجية للتشققات وقتل الفطريات الجلدية، لاحتوائها على مواد جليكوسيدية كـــ (اللاوسون) وهي المادة المسؤولة عن التأثير البيولوجي طبياً، وكذلك مسؤولة عن الصبغة واللون البني المسْوَد، ونسبتها في الأوراق نحو 88% لنوع الحِنَّاء، كما ثَبُت حديثاً أنّ لأوراق الحِنّاء فعَّالية ضد بعض أنواع من السرطان، وفي علاج صداع الرأس وتضخّم الطحال، وتعمل على تخفيض ضغط الدم المرتفع، كما أنّ لها فعالية في علاج ضيق الشرايين(*).

3- **وظيفة اجتماعية:** تُعدّ الحِنَّاء دلالة رمزية اجتماعية تميز العروس من قريناتها الأخريات، ويُضفي عليها بهاءً ورونقاً وجمالاً؛ وبذلك تكون الحِنَّاء مظهراً من مظاهر مُباهاة المرأة الريفية في ليلة زفافها.

* موقع صحيفة 26 سبتمبر (الموقع الإخباري اليومي)، العدد /1106/.

من المعلوم أنّ الحنّة "هي الليلة التي يتم فيها الاحتفال بتحضير العروس لليلة الزفاف والدخلة، بدءاً من الاستحمام وانتهاءً بوضع الحنة على يديها ورجليها في طقوس خاصة تقوم بها نساء متخصصات كـ(المشّاطة) أو (اللبيّسة)، التي كانت فيما مضى تقوم بتجهيز العروس بدءاً من تسريح شعرها وانتهاءً بتلبيسها ثياب الزفاف في منزلها قبل موعد خروجها منه بصحبة العرَّاسين(**)" (خرما، 2007، 70).

ولتحنية العروسين قبل الزفاف، مدلولاتها الوظيفية الأخرى في مجتمع الريف الساحلي، من حيث إنّها تشكل معنىً جماعياً اجتماعياً/ثقافياً يُجمِع عليه أبناء القرية، فالحِنَّة ليست مجرد اجتماع بعض قرينات العروس وصديقاتها المقربات من فتيات القرية ونسائها فحسب، بل هذا الأمر يشكل بحد ذاته طقساً اجتماعياً يُكرِّس قيم التواصل والتعاضد والتضامن الاجتماعي، ما يشكِّل بدوره أداة حقيقية لضبط أفراد المجتمع وتنظيمهم، يكون ذلك في كيفية تعايشهم من جهة، وتكيفهم مع مجتمعهم لتحقيق استقرارهم ورفاهيتهم من جهة أخرى؛ في الوقت الذي يدعم فيه هذا المعنى الاجتماعي بعض الأمثال الشعبية والحِكَم المتوارثة من جيل إلى آخر، أو من خلال الأغاني والأهازيج التي تعبّر عن أهمية ممارسة عادة التحنية، لذا فهي بالنتيجة "سلوك متكرر، مكتسب اجتماعياً، ويُتعلم اجتماعياً، ويُمارس اجتماعياً، ويتوارث اجتماعياً" (دياب، 1980، 104).

واهتمامنا بدراسة ظاهرة الحِنّاء، من وجهة نظر العلم الأنثروبولوجي، ينبع من أهمية الظاهرة في التأريخ للحياة الاجتماعية القروية، بما فيها من معانٍ ومدلولات اجتماعية/ثقافية؛ مع الأمل أنْ تشكل مثل هذه الأبحاث محاولة جادة لربط الماضي البعيد بمعانيه وقيمه الثقافية التقليدية بالحاضر القريب الذي مافتئت تعصف به رياح التغيير من كل جانب، ما يؤثر سلباً في خصوصية الثقافة الاجتماعية/التاريخية لمجتمعنا الريفي.

لهذا فإنَ الخوض في دراسة (ليلة الحنّاء) بالنسبة إلينا، ما هو إلا دعوة جادة لإعادة قراءة هذا التقليد القديم، ومدى حضوره في شخصية المجتمع الريفي، وفي سلوكه الاجتماعي اليومي، حتى يبقى ماضي المجتمع السوري وعلى الأخص (الريفي) موجوداً في حاضره.

وعلى هذا الأساس فإنّ الغاية المُثلى من هذه الدراسة: هي تقديم قراءة أنثروبولوجية جادة لظاهرة الحناء في مجتمع القرية، التي كانت تشكل في الماضي جزءاً مهماً من نظام الزواج ومن ثقافته الاجتماعية في ريف الساحل السوري، لكن علينا دراستها في ضوء معطيات ثقافة الوقت الراهن ومدلولاته، بعد الكشف عن مستويات الاعتماد الوظيفي المتبادل بين عناصر الثقافة الاجتماعية الريفية، من عادات وتقاليد اجتماعية تخص مراسم الزواج في الريف، بهدف فهم الآلية الوظيفية التي أدتها مستويات التبادل تلك؛ إذ كانت تقف من وجهة نظرنا وراء مشاعر أفراد المجتمع بالرضا والاندماج الاجتماعي.

تحليل الدراسة وتفسيرها:

1- **مدلولات ليلة الحِنَّاء:** تعد ليلة الحناء ليلة مهمة وفاصلة في حياة كل عروسين؛ لأنّها تحمل في مضمونها كثيراً من المدلولات الاجتماعية والنفسية على حدٍّ سواء؛ إذ يُفترَض على كل مجتمع إنساني، قبل الزواج، القيام ببعض التدابير التي تحمل سمة احتفالية جمعية، بهدف الإسهام بتهيئة العروسين لليلة مفصلية ومهمة في حياتهما، ألا وهي (ليلة الزفاف)، وما يسبقها من مراسم كانت تمتد في الماضي القريب لأيام متتالية؛ إذ لكل ليلة

** **العرَّاسون:** هم جمهور المحتفلين بزفاف العروسين، بحيث يواكبونهما منذ لحظة البدء بمراسم الزفاف، كما يرافقونهما في رحلتهما الأخيرة إلى بيت الزوجية، في جو من الفرح والمرح، وعلى أنغام موسيقا المزمار وأهازيج من الغناء الشعبي الخاص بالمناسبة.

منها معانيها ومدلولاتها الرمزية الخاصة بها؛ إذ لم يكن في الماضي يقتصر معنى هذه الليلة (ليلة الحِنَّة) على احتفالات جمعية بوضع الأصباغ على بعض الأنحاء من جسد المرأة كالكفين والقدمين والشعر فحسب، وإنّما في الحقيقة كانت تتجاوز مدلولات هذه الليلة الاحتفالية – كما بيّنا سابقاً– الوظائف الظاهرة **كالتزيين والعلاج**، إلى أبعد من ذلك بكثير، أي بما يتأتى عنها من معانٍ اجتماعية/نفسية على حدٍّ سواء، وهذا ما كان على المجتمع فعله في تهيئة العروسين اجتماعياً ونفسياً لهذه المرحلة الجديدة من حياتهما، بما تحمله هذه الليلة من تحوّلات عميقة، لا ترتبط بحدوث تغيرات جوهرية في طبيعة الأدوار الاجتماعية للعروسين اللذين يسعيان لتشكيل أسرة جديدة، وإنّما الأهم من هذا ما ستحمله ليلة العرس والدخلة من مستجدات في البنية الفسيولوجية للعروس العذراء البكر، وما يرتبط بها عادةً من رهبة وخوف لدى العروسين، من تخطّي هذه الليلة التي كانت المجتمعات الريفية التقليدية تُسبِغ عليها كثيراً من المعاني الاجتماعية، المرتبطة برجولة الذكر من جهة، وشرف الأنثى وعفّتها من جهة أخرى؛ إذ تحمل هذه الليلة معها تغيرات مهمة على صعيد الحياة الشخصية والاجتماعية لكلا العروسين، وبخاصة ما يمسّ منها حياة العروس التي تنتقل بين ليلة وضحاها من العيش في كنف الأهل إلى عالم تعيش فيه في كنف زوج كان يشكل قبل وقت قصير جزءاً من عالم غريب عنها.

في هذا الإطار تُعدّ هذه الليلة ليلة مفصلية في حياة العروسين، لما يرتبط بها من حدوث تغيرات اجتماعية/فسيولوجية، وما قد يتأتى عنها من تحولات نفسية في حياتهما، ولعل أخطرها ما قد تتعرض له العروس من ضغوط نفسية وتشوُّشٍ ذهني جرّاء ليلة الدخلة، التي تُعدّ مفترقاً ما بين العزوبية بفضائها الحُرّ الواسع والزواج بمتطلباته اليومية والواجبات المتأتية عنه لدى الطرفين؛ لذا كان يتطلب من المجتمع أنْ يتهيأ فيه لولادة أسرة تشكل مع بقية الأسر الأخرى ما يسمى المجتمع، هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فكان على هذا المجتمع أنْ يُهيِّئ قُطبي الأسرة (العروسين)– وقبل أنْ تجمعهما جدران بيت واحد– لتقبُّل بعضهما والاستعداد لبدء حياة جديدة أسبغ عليها المجتمع الرباط المقدّس.

لقد كانت تكتنف ليلة الدخلة في الماضي القريب كثير من الآراء والمعتقدات ووجهات النظر التي تطرحها القيم السائدة في المجتمع، والتي غالباً ما تتحول إلى هواجس نفسية تضغط على ذهن العروسين، وبخاصة منهما العروس، قبل ليلة الزفاف، من هنا لم تكن ليلة الحناء تمثل بجوهر معناها مجرّد ليلة تزيينية أو تلوينية لبعض أجزاء من جسمها فحسب، وإنّما يتمثل المعنى الجوهري لهذه الليلة بإعداد الفتاة لليلة الدخلة والزواج في عصر كان يُشاع فيه الزواج التقليدي؛ إذ غالباً ما كانت الفتاة تعيش حالة اغتراب عن عريسها الذي لم يكن يرتبط بها بأي روابط أخرى سوى روابط القرابة في الزواج الداخلي، أو تلك الروابط المعرفية التي كانت تربط ما بين ذوي العروسين.

فالحِنَّة بوصفها ليلة سابقة للعرس تتجاوز في معانيها المظاهر الشكلية إلى **وظائف كامنة** أهم وأسمى ألا وهي وظائف (التهيئة النفسية والروحية والاجتماعية) للعروس في أولى خطوات مسيرتها إلى عش الزوجية، للعيش ضمن جماعة جديدة (جماعة أسرة الزوج)؛ إذ كانت العروس في الماضي القريب ترتحل من بيت أسرتها إلى بيت الزوجية لتبدأ العيش مع عريسها في غرفة خاصة بهما، فيما تتقاسم مع أهل زوجها الطعام والشراب والعمل.

لعلَّ هذه الرحلة، بمسافتها الصغيرة الفاصلة ما بين العزوبية والزواج، كانت في الماضي تشكّل– ليس لدى العروس فحسب، وإنَّما لدى عريسها أيضاً– هالة من الهواجس المتناقضة، ما بين الفرح تارة والحزن تارة أخرى والخوف من مجهول هذه الليلة تارة ثالثة، لهذا لم يبتدع أسلافنا سبع ليالٍ في أفراح الأعراس عن عبث، وإنّما جاءت

هذه المدة الزمنية لتحقيق وظائف اجتماعية مستترة لا ترتبط بالإعداد للعرس من النواحي الاحتفالية وإنّما تسهم في إعداد المجتمع لقبول العروسين بوصفهما زوجين جديدين فيه، ومن ثم تهيئتهما للدخول إلى عالم جديد بما يحتويه هذا العالم من أدوار جديدة تستوجب أنْ تكون حاضرة لديهما، ليحققا معاً درجة عالية من التكيف الصحيح مع هذا المجتمع، وليحققوا بالنتيجة تفاعلاً إيجابياً عالياً.

في حقيقة الأمر فإنّ ليلة الحِنَّة تحتوي في مضامينها (وظائف كامنة) تمثلت بوظيفة إعداد العروسين وتهيئتهما نفسياً واجتماعياً لمرحلة جديدة من حياتهما؛ بالإضافة إلى الوظائف الظاهرة التي أسهبنا في تحليل مدلولاتها، كالوظيفة الاجتماعية، حيث يشكّل العروسان على الدوام مركز اهتمام المجتمع، وكذلك (الوظيفة التزيينية) التي يتمثل دورها بإظهار مفاتن العروس ومكامن جمالها بين قريناتها في ليلة زواجها، ناهيكم عن (الوظيفة الطبية) للحِنَّة في علاج بعض الأمراض الجلدية وغيرها. ولن ننسى في هذه العجالة ما تمَّ الكشف عنه بأنّ لمادة الحِنَّاء روائح عطرية مُبْهِجة، وللونها القرمزي خاصِّية في تهييج المشاعر وتأجيجها.

من المعلوم، في ثقافتنا العربية، أنّ مراسم الأعراس التقليدية في الماضي كانت تستمر فيها الأفراح والليالي الملاح لأكثر من سبعة أيام، ومنها بالطبع (ليلة الحنّاء) التي كانت تسبقها خمس ليالٍ، وفي هذا تكمن أهمية معنى هذه الليلة من كونها – كما أسلفنا– ليلة إعدادية لليلة الزفاف.

2- **مراسم تحنية العروس:** كانت التحضيرات للاحتفال بليلة الحنّاء تبدأ مع شراء العريس المواد الخاصة بتحنية عروسه، وذلك في وقت سابق لليلة الحِنَّة؛ إذ تتحضَّر العروس لهذه الليلة بارتداء البسيط من ثيابها، تحسُّباً من تصبّغ لباسها، كما كان يُحظّر في الماضي على العروس أنْ ترتدي الألبسة الجديدة قبل فترة من يوم زفافها، لكي تبدو في أثناء العرس وهي في أبهى حلة وأجمل طلعة، ولهذا الأمر مدلوله الاجتماعي أيضاً، فالعروس كانت تحرص في الماضي أنْ تترك لدى المحتفلين بها انطباعاً يرتبط بالبساطة من خلال ارتدائها الألبسة البسيطة، ما يسمح في ليلة زفافها– ومع ارتداء ثوب الزفاف المهيب– أنْ تضفي على نفسها هالة من المهابة والجمال، فتبدو فريدة بين قريناتها الحاضرات اللواتي يحرصنَ بدورهنَّ على منافستها في ارتدائهنَّ الألبسة التي تُظهر مفاتن جمالهنَّ أيضاً؛ إلا أنّ هذا الأمر لن يؤثر في تفرّد العروس وتميُّزها من بقية المحتفلات بليلة زفافها.

مع حلول المساء يبدأ تقاطر المدعوات من النسوة إلى منزل العروس؛ لتبدأ بعدئذٍ طقوس تحنيتها؛ إذ تقوم بهذه الوظيفة الاجتماعية إحدى السيدات المتخصصات بالأمور التزيينية، على أنْ تكون ذات خبرة ودراية واسعتين بعملية خلط المكاييل، التي يُفترض أنْ تكون دقيقة للحصول على نتائج تحنية جيدة ومرضية للجميع، بحيث تبدؤها بوضع مسحوق الحناء في وعاء يُراعى أنْ يكون مُزيَّناً بالورود، وتتمثل دلالة التزيين بالورود إضفاء شيء من الجاذبية والجمال التي تشد الأبصار إلى وعاء الحناء، في الوقت الذي يُؤمل فيه أنْ تعطي هذه الورود لمزيج الحناء شيئاً من خواصها العطرية؛ فضلاً عن وظيفة الورد في بعث روح التفاؤل والارتياح والمحبة لدى الحاضرين.

بعد الانتهاء من عجن الخليط بالماء وزيت الزيتون، تقوم المُحنِّية بوضعه في وعاء من معدن الألمنيوم أو النحاس يسمى محلياً (الصَّينية)، ثم تقوم بتقطيع عجينة الحنة إلى قطع طولانية، ليتسنَّى وضعها بيسر في راحة كف العروس، وعلى أصابع قدميها، بينما يُطلب منها أنْ تُطْبِق الكفين بإحكام على المزيج قبل لفّهما بعُصابة من القماش، وذلك لوظيفة القماش في الضغط على عجينة الحِنَّاء لكي تلامس كل المسام والدخول إلى عمق التشققات الجلدية، تحقيقاً للوظيفة الاستطبابية من جهة، ولمنع تساقط المزيج قبل حلول صباح اليوم التالي، من جهة ثانية، ولحجب

أشعة الضوء من الوصول إلى مكوَنات العجينة كي لا تتأثر المادة التلوينية الفعَالة فتؤثر سلباً في تصبُّغ الجلد، من جهة ثالثة.

وفي الصباح تقوم العروس بنفسها بفرك عجينة الحنة عن يديها وقدميها، ومن دون استخدام الماء، وذلك لأنّ الماء يؤثر سلباً في كثافة اللون القرميدي الغامق المُحبَّب للنفوس، فثبات اللون له معانيه ودلالاته الاجتماعية بالنسبة إلى العروس وإلى أهالي القرية، فالعروس التي تبدو أصباغ الحنة على يديها أكثر كثافة تكون أكثر سعادة وبهجة، وأعمق التصاقاً بزوجها، من العروس التي لا تتحقق لديها هذه المعادلة.

كما تحاكي الصبايا الحاضرات رفيقتهنّ بتحنية أيديهنّ أيضاً، ولهذا دلالته الاجتماعية المتمثّلة برغبة كل منهنّ في أنْ تحظى بفرصة مماثلة للاقتران بعريس، وهذه الأمنية كانت في الماضي القريب تمثل جلَ الأماني العظيمة لكل فتاة في المجتمعات الريفية التقليدية، أنْ يُيسر الله أمر جميع الصبايا الراشدات للفوز بعريس مناسب، وبالطبع لن تُفوّت هذه الفرصة النسوة المُسنَّات؛ إذ يبادرنَ بدورهنّ أيضاً بتحنية أكفّهنَّ وخصلٍ من شعورهنَّ، لما لذلك من معنى مهم في نفوسهنّ، من كونها فرصة غالية لتذكُّر أيام العزوبية، أيام الصبا والجمال، ويُدخل في أنفسهنّ البهجة والفرح، ويُعمِّق لديهنّ مشاعر الألفة والمحبة والسرور.

بعد أنْ تنتهي طقوس الحنَّاء، تحمل العروس صينيّة الحنة لتدور بها سبع مرات في أنحاء المكان، بينما تلتف من حولها رفيقاتها لمنعها من التوقف عن الرقص ما أمكن؛ إذ للرقم سبعة دلالته الرمزية والدينية لدى أبناء الساحل السوري، وذلك من كون هذا العدد مدعاة للتفاؤل والخير، إلاّ أنّه يمكننا قراءة مدلول الدورات السبع للعروس، وهي ترفع صينية الحِنَّاء فوق رأسها، وتفسيرها أنثروبولوجياً بما كان يرتبط في الماضي بطقوس الاحتفال بالأعراس لأيام سبعة؛ فضلاً عن ارتباط مراسم العرس بسبع مراحل، تبدأ بمرحلة إرسال الجاهة، ومن ثم الطليبة، فالخطوبة، فالتعليلة الأولى، ومن ثم التعليلة الثانية، فليلة الحِنَّة، التي نحن بصددها الآن؛ ليأتي في المرحلة السابعة والأخيرة (العرس)، وجميع هذه المراحل تحمل في ثناياها معاني ومدلولات اجتماعية ونفسية لدى العروسين وأهليهما؛ بما في ذلك مدلول الاعتراف الجمعي لأبناء المجتمع بهذا الزواج، الذي لن يستقيم إلا بمباركتهم وتقديم التهاني لهما.

بعد ذلك تقوم كل فتاة بدورها بحمل صينية الحناء لترقص بها، ولهذا الطقس معنى اجتماعي يحمل في حناياه رغبة الفتاة في التعجيل بمجيء نصيبها أسوة بقرينتها، وذلك قبل أنْ يفوتها قطار الزواج، وكل ذلك يتم في جوٍّ من الفرح والمرح، حيث تتعالى في المكان أصوات الزغاريد والأهازيج المرتبطة بهذا الطقس، فتشير كل أهزوجة بمعنى خاص بها، ومنها ما يدل على حالة العروس عندما تجتاحها مشاعر متناقضة من الحب والفرح والسعادة، أو الأسى والحزن على فراق أهلها، ومن تلك الأهازيج:

مِدَي إيدَكْ الشمال يا ورد يا لمَّام
يا ظريفة المعاني ياخلقة الرحمن

وغالباً ما تبدأ مراسم الحنّاء بهذه الأهزوجة، لتشجيع العروس على مدّ يديها للمحنيّة، وبخاصة عندما تبدأ ملامح الخجل والحياء بالظهور على مُحيَّاها.

كما تقطع مراسم هذا الاحتفال بعض مظاهر الحزن والبكاء التي تنتاب العروس بين الفينة والفينة، على الرغم من المباهج المنتشرة في القرية، ولهذا التناقض أو التباين في المشاعر دلالته الاجتماعية التي تعود لشعور العروس بدنوّ لحظات مفارقتها لأهلها، وما يرتبط بهذا الافتراق من خوف ورهبة من المجهول القادم؛ إذ تبدأ حياة جديدة بكل تفاصيلها؛ الأمر الذي يدفع بها إلى التمنُّع عن تأدية مراسم تحنيتها بيسر، حتى إنّ الأب يتدخل لإقناعها

بالامتثال لأوامر المحنّية لإنهاء الطقوس الخاصة بهذه الليلة على أكمل وجه. ولهذا الأمر دلالاته الاجتماعية أيضاً؛ إذ تكشف عن رغبتها في استمرار وصال أهلها، ما يكشف عن حُسن تربيتها، ورجاحة عقلها ونضج وعيها في آنٍ معاً. وهذا على الأغلب يترافق مع أهزوجة معبّرة عن ذلك المعنى:

مدِّي إيــدك مدِّيـــــها والإيد التانية ردِّيـــها
وهاتي إيدك يا عروس وهاتي حتى نحنِّيـــها
وحدِةْ بتداوي المجروح والتانية منشرب فيها

بعد ذلك تبدأ الأهازيج المعبّرة عن مرحلة العزوبية الجميلة التي تكاد تعبُرها العروس لتوِّها، بما تحمل من أجواء الحرية والسعادة، وبما تتسم به من هرج ومرج، ما يزيد من حرجها وحزنها:

ع الموليّا الموليّا الموليّا عيني يا مولـــيّـــــا
يا ماحلى الوما بالوما ويا محلى العزوبية

كما تغني الحاضرات هذه الأغنية البديعة المعبّرة عن مواكبة العروس إلى الاستحمام:

رُوَاااحي يُمَّا ع الحمَّام رُوْاااحي والعشق من الله والهوى سَوْسَاحي
شوفا بقبرص ع البيدر عم تُدرس والحِنَّا تلمسْ والكفوف ملاااااااااااااااحي

3-مراسم تحنية العريس: لم يكن الاحتفال بتحنية العريس أقل شأناً من مراسم الاحتفال بتحنية عروسه، وإنْ كان أقل اتساعاً، لهذا كان لابد من انتقال بعض النسوة المقرّبات من العريس من بيت العروس، يرافقهنَّ بعض الشبان من أصدقائه وبحوزتهنَّ كمية من مزيج حنَّاء العروس نفسه، قاصدين مكان إقامته، حيث تعلو أهازيج الغناء الشعبي التي ترتبط بهذه المناسبة الجمعية السعيدة؛ فضلاً عن تعالي أصوات الحناجر بالزغاريد (المهاهاة)* من هنا وهناك تترنم بكرم العريس وجودة الحنّاء التي مصدرها دمشق:

هاااااااااا الحنّة جبناها من الشام وهاااااا طلْبِيْتا كل الحكاااااااااام
وهاااااااا يا الله تحنوا يا شبااااب وهاااااا هَنّوا العريس بالسلامة

في هذه المرحلة تقتصر مراسم الحِنَّاء على تحنية إصبع (البُنصر) من اليد اليمنى للعريس، وهو الإصبع الذي سيُنقل إليه (المِحْبَس) أو (خاتم الخطبة) قبيل الانتهاء من مراسم الزواج بوقت قصير، حيث يُؤمَل أنْ تدوم صبغة الحنّاء على الجلد لوقت أطول، ولهذا دلالته الرمزية التي ترتبط بديمومة استمرار وصال العروسين إلى آخر العمر؛ فضلاً عن أنّ تحنية إصبع واحد للعريس دون سواها له دلالته الرمزية المعبّرة عن

التفرّد بالرجولة. هذا في الوقت الذي يحذو فيه رفاق العريس حذو رفيقهم باختطاف ما تبقّى من عجينة الحِنَّاء ليُصار أيضاً لتحنية إصبع واحدة لكل منهم، أملاً بأنْ تصيبهم عدوى الاقتران بشريكة مثله.

من المُلاحَظ أنّ تحنية العروسين هو طقس ثقافي/اجتماعي جمعي، لا يقتصر عادة على العروسين وأهليهما فقط، وإنما يترافق مع احتفال مُصغَّر، يُحتفَل فيه بتحنية كلٌ منهما في بيته ووسط رفاقه، هذا إذا كانا متجاورين أو من قرية واحدة، أما إذا كان العريس غريباً عن مجتمع القرية فعندها تتم عملية تحنيته في بيت مجاور لبيت عروسه عند أحد أقاربها.

ومن المعلوم، أنّ هذه المراسم الاحتفالية القروية الجمعية، كالخطبة والأعراس، وما يرتبط بها من أغان وزغاريد، ظلت تتناقلها الأجيال عبر الأزمان، ولكن غالباً ما كان الناس يضيفون إليها شيئاً من تجاربهم وخبراتهم

* المهاهاة، أو المهاهاية، أو الزلغوطة: تعني باللهجة المحلية المحكية في القرية (الزغرودة).

وهمومهم، ما يضفي عليها بعضاً من الخصوصية المحلية للمجتمع، بما يغذيها ويعمق تأصلها؛ لتصل إلينا بهذه الشاكلة المعهودة الآن؛ إذ إنّ هذه الزغاريد والأهازيج كانت تقع عملية تَنَاقُلها والترنُّم بها على عاتق بعض القرويات المتخصصات دون سواهنّ؛ إذ ليس للرجال في هذا المنحى أي دور؛ لأنّ الحامل الاجتماعي لهذا الإرث الثقافي الشِّفاهي يتمثل عادة بالمرأة حصراً.

مع انتهاء تراتيل هذه الأهازيج، وغيرها، ممّا يتناسب والاحتفال بهذه الليلة الجميلة، فإنّ طقوس الحنَّاء تنال ما تنال من أهميتها البالغة في القرية، من أنّها تتجاوز حدود الفسيفساء التجميلية التي تزيّن ظاهرياً أيدي النساء وأقدامهنَّ؛ لتأخذ بعداً اجتماعياً وثقافياً فريداً في نسق العادات والتقاليد الاجتماعية للريف، هذه التقاليد الثقافية التي تتساند وظيفياً مع مثيلاتها من الطقوس والعادات الاجتماعية الأخرى التي تكوِّن معاً نسقاً ثقافياً محدّداً، يشكّل مع بقية أنساق البناء الاجتماعي كلاً واحداً يهدف بالنتيجة إلى تحقيق الوجود الفعلي للمجتمع، هذا البناء الأشمل الذي يرتكز في استقراره ودوام استمراره على مبادئ التكافل والتضامن الاجتماعيين لجميع أفراد القرية.

ولعلَّ ما يُعطي لهذه الدراسة مصداقيتها المنهجية، كما أزعم، ينبع من كوننا اعتمدنا وسيلتي الملاحظة المباشرة، والملاحظة بالمعايشة لقراءة هذه الظاهرة أنثروبولوجياً، وقد اتضح الأمر من خلال مجالسة بعض المسنّات من نساء القرية اللواتي تفاعلنَ معي بكل ودّ ومحبة، ما أثر إيجاباً في الحصول على نتائج موضوعية، نأمل أنْ تتسم بدرجة عالية من الدقة والصدق.

4- **تطور ظاهرة الحناء:** في السبعينيات من القرن الماضي، بدأت تظهر في المجتمع بوادر جملة من التغيرات المختلفة، من اقتصادية وثقافية واجتماعية، ترافقت عملياً مع مستجدات حداثوية فرضها انفتاح المجتمع السوري على العالم، بفعل حركة التثاقف مع المجتمعات الأخرى، التي هيأت لها ثورة الاتصالات، والثورة المعلوماتية التي أخذت تتوطن في المجتمع شيئاً فشيئاً.

في تلك المرحلة من حياتنا بدأت تغزو صالونات الحلاقة النسائية، بأدواتها ووسائلها التزيينية الحديثة، كل مكان، بعد أنْ كانت هذه الأمور مرهونة بأبناء الذوات من الموسرين دون سواهم؛ إذ أخذت هذه الثقافة الاستهلاكية بالانتشار شيئاً فشيئاً لتأخذ دورها في تجميل العروس بإبراز مكامن جمالها، وهو ما عُرف لاحقاً (بالماكياج)، فوجدت فيه الأجيال الشابة غاياتها في الحصول على أساليب تزيينية غير تقليدية توافق روح العصر، وتعطي العروس مسحة جمالية مصطنعة، وتضفي عليها هالة من البهاء؛ إذ انتشرت في المجتمع انتشار النار في الهشيم، حتى تكاد ترى في كل قرية صالوناً لتزيين العرائس على شاكلة صالونات التزيين في أعرق أحياء المدينة، بهذا المنحى بدأت أجيال الثمانينيات تساير المتغيرات الاجتماعية والثقافية، وتتحول إلى محاكاة الثقافة الاستهلاكية الوافدة، ولتبدأ معها مرحلة الخروج عن بعض القيم الثقافية المألوفة في القرية؛ إذ بدأت الفتيات بارتياد صالونات التزيين لقص شعورهّن وتزيين أنفسهنّ بوضع المساحيق والأصباغ الصناعية، التي راجت على حساب مواد التزيين التقليدية، وليبدأ بذلك عصر الكوافيرات المتخصصات بالزينة والتجميل، فأخذت الكوافيرة دورها في تزيين العروس بما في ذلك القيام بترتيبات الحِنَّاء بوضع نقوش تزيينية متنوعة على الأيدي أو حتى الأكتاف أو أنحاء أخرى من الجسد، وذلك بحسب الرغبة والطلب، وبأشكال إبداعية متنوعة، وفي هذا المنحى أخذ يتراجع اهتمام الريفي بليلة الحِنَّاء عما كانت عليه في الماضي، ولكن المؤشرات الراهنة تكشف عن نزوع نسبي لدى الأجيال المعاصرة للعودة والاحتفال بليلة الحِنَّاء مع أواخر العقد الأول من الألفية الثالثة؛ وبذلك تبدأ تباشير رياح التغيير ثانية بالعودة إلى عناصر التراث في لحظة هروب من تعقيدات الحياة التي حملتها في الماضي أعاصير التغيير، ما يكشف عن

استيعاب الأجيال الجديدة لمعطيات التغيير، والتحديات الجديدة التي فرضتها صناعة المعلومات والتكنولوجيا، ومن ثم إدراكهم أهمية العودة إلى التراث للتمتع بمعاني ثقافة الماضي بما تحمله من قيم ثقافية تتسم بالبساطة، وهذا ما يسوغ القول المنهجي: أنّ "الثقافة العربية المعاصرة ليست بنت الحاضر فقط، وإنّما يوجد فيها من الماضي عناصر ثقافية كثيرة، سواء أكانت عناصر مادية، أم اجتماعية، أم سياسية، أم روحية وفكرية". (دياب،2009، 40).

الاستنتاجات والتوصيات:

تكشف الدراسة أنّ هناك حراكاً اجتماعياً حقيقياً نحو عودة أبناء الريف الساحلي لتبنِّي إحياء بعض المظاهر الثقافية التقليدية، ومنها نزوع بعض الأزواج من أبناء قرية بللوران نحو إعادة استخدام طقوس الحِنَّة قبل زفافهم، اتضح ذلك من خلال طرح السؤال التالي على بعض الشبان حديثي الزواج، وهو: هل كانت هناك حفلة حنّاء قبل ليلة لزفاف؟. لتأتي الإجابات بأغلبها بنعم؛ أي حدث هناك احتفال ولكن بشكل من أشكال الاحتفال المصغّر الذي يسبق عادة (العرس)، وهذا يكشف بشكل أو بآخر نزوع الأجيال الجديدة لإحياء الثقافة التراثية التقليدية، كان ذلك تحت تأثير ضغوط العولمة المعاصرة الممزوجة دائماً بقيم الحداثة التي أمست تؤرق الأفئدة الصغيرة التي تحملها الأجيال الشابة، فتكون العودة إلى التراث آلية أو وسيلة للهروب من تكاليف البهرجة والثقافة الاستهلاكية التي غزت عقول النشء، في زمن استحكمت فيه القيم المادية بكل شيء؛ لتترك تأثيراتها في البناء الاجتماعي للمجتمعات التي كانت فيما مضى تتسم بتركيب بنيوي بسيط، ولعل أحد أجزاء هذا التركيب ما يُعرف بالنسق الثقافي، الذي تشكل عادة الحِنَّاء جزءاً منه.

إذن، بالفعل بدأت تلوح في الأفق تباشير العودة لأساليب الماضي، بالاحتفال بليلة الحنّاء في القرية، حيث تجتمع رفيقات العروس وأهلها ومع من تحب أنْ يشاركوها الاحتفال بهذه الليلة، ولكن من دون أنْ تكون هناك دعوة عامة، كما كان يحدث في الماضي؛ في الوقت الذي بدأ يقتصر فيه هذا الاحتفال على تحنية العروسين في المكان نفسه، ولا يُراعي، كما كان في الماضي، تحنيتهما في مكانين منفصلين، وذلك لدور التحضُّر في التقريب ما بين العروسين، وحتى قبل اقترانهما برباط الخطوبة.

بهذا، أخذ يقتصر الاحتفال بتحنية العروس، في الوقت الراهن، على عدد صغير من رفيقاتها المقرّبات جداً، وباستخدام العجينة التقليدية للحِنَّاء نفسها، ولكن مع فارق كبير يتمثل اليوم في الاقتصار على تحنية العروس لإصبع (**الخُنْصُر**)* من يدها اليمنى فقط، تماشياً مع عريسها الذي تُحنَّى له خنصر يده اليمنى أيضاً، وهذا تقليد قديم يُعاد بعثه من جديد.

ولتحنية إصبعي العروسين فقط مدلولاتها الاجتماعية أيضاً، والمتفقة مع روح ثقافة العصر، أملاً في أنْ يستمر رباطهما المقدس، وعلى أمل أنْ تجمعهما روح المحبة والوفاق، وبما يشير من جهة ثانية إلى تأصل سيادة ثقافة المساواة بين الجنسين (المرأة والرجل) في الواجبات والحقوق، وفي المكانة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، التي بدأت تفرضها المستجدات الراهنة التي رفعت المرأة إلى موقع اجتماعي مرموق، ما يجعلها تنزع إلى مشاركة الرجل في تحمُّل الأعباء الاقتصادية، مثلها مثل الرجل، وخاصة بعد دخولها سوق العمل.

* (الخُنْصُر): هي الإصبع الثانية بعد الصغرى (البُنْصُر)، يوضع فيها عادة المِخْبَس (خاتم الخطبة).

بعد ذلك يقوم العريس بحمل فتاته على يديه، بُعيْدَ الانتهاء من مراسم التحنية، في جوٍّ من الفرح تتخلله طقوس من الرقص والغناء وسط أصدقائهم ومُحبِّيْهم، ولكن هذه المرة على أنغام الموسيقا والأغاني العصرية الحديثة.

المراجع:

1- أبو زيد، أحمد، البناء الاجتماعي(المفهومات)، ج1، ط5، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1976، 323.

2- أبو طاحون، عدلي، في التغير الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1997، 247.

3- الشيباني، محمد عمر التومي، مناهج البحث الاجتماعي، د.م.ن، سرس الليان، 1971، 218.

4- العقيبة، هند، عادات الزواج وتقاليده بين الثبات والتغير، أطروحة ماجستير، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، جامعة دمشق، 2003، 285.

5- خرما، إيفا، تطور بنية الأسرة الريفية في قرى الساحل السوري، أطروحة ماجستير، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، جامعة دمشق، 2007، 371.

6- العمر، معن خليل، معجم علم الاجتماع المعاصر، دار الشروق، عمان، 2000، 547.

7- دياب، عز الدين، مقاربة من مفهوم الدور الحضاري في الفكر القومي، مكتبة دياب، القاهرة، 2000، 183.

8- دياب، عز الدين، توجهات نحو جامعة عربية للمستقبل، وزارة الثقافة، دمشق، 2009، 302.

9- دياب، فوزية، القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، 317.

10- شماس، سالم بن مستهيل، دورة حياة الإنسان عبر العادات والتقاليد بمحافظة ظفار، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 2007، 405.

11- عبيدات، سليمان أحمد، دراسة في عادات وتقاليد المجتمع الأردني، مؤسسة مصري، بيروت، 1986، 420.

12- هولتكراس، إيكه، قاموس المصطلحات الإثنوغرافية، ترجمة: محمد الجوهري، وآخرين، دار المعارف، مصر، 1972، 632.

13- العسكري، سليمان، "أحمد أبو زيد وجورج طرابيشي"، مجلة العربي، العدد475، الكويت، 1998، 208.

14- موقع صحيفة 26 سبتمبر، (الموقع الإخباري اليومي)، العدد (1106).